الفضاء الروائي في رواية (القرية التي كانت) لأحمد نصر

كامل محمد مصطفى الكرشيني
قسم اللغة العربية كلية اللغات والترجمة ، جامعة مصراتة ، البريد الالكتروني
kamel.ly70@gmail.com

استلمت الورقة بتاريخ 2023/5/1
وقبلت بتاريخ 2023/8/10
ونشرت بتاريخ 2023/8/27

الكلمات المفتاحية:
أحمد نصر، فضاء روائي، القرية التي كانت

الملخص

يتناول هذا المقال الفضاء الروائي في رواية (القرية التي كانت) للكاتب الليبي أحمد نصر، وتتغيّ الدراسة مقاربة مستويات الفضاء في هذه الرواية التي جاءت على صورة ثنائيات متضادة ، تتمثل في :فضاء القرية في مقابل فضاء المدينة والخارج، وفضاء الأصالة في مقابل فضاء التغريب والفضاء الأليف في مقابل الفضاء غير الأليف والفضاء الواقعي الآني في مقابل الفضاء الحلمي والتذكري، كما تحاول الدراسة تحليل تلك المستويات وقراءة دلالاتها، منطلقةً من خلفية نظرية مفادها أن الفضاء يجب أن يدرس من خلال علاقاته مع المكونات السردية .

مقدمة

أصبح لمفهوم الفضاء في الدراسات السردية الحديثة، حظوة ، باعتباره ، من منظور النقد، مكونًا أساسيًا من مكونات بنية النص السردي ، لأن من مدلولاته احتواء المكان بتأثيثاته وما يتحرك فيه من شخصيات وأحداث وعلاقات بل يشمل الجو العام الذي تخلقه اللغة السردية في تفاعلها مع ذهن المتلقي وبما فيه من ثقافة وأوهام كهف.

رواية (القرية التي كانت) للروائي الليبي أحمد نصر ، رواية فضاء بامتياز ، حتى عتبة العنوان فيها تكشف نسيجه، حيث تظهر نزوعًا للمقارنة بين فضاء قرية في حاضره المهلهل و بين ماضيه المثبت القار بوجدان راويه . وهذا ما يكشف عنه متن الرواية فيثير عند القارئ وجهات نظر متعددة، فهذه القرية ليست مجرد جغرافيـــا ساكنة يعمل بشر ويتقلب فيها بلا معنى، إنما هي فضاء ينكمش ويتمدد ،يعمر بالواقع والخيال وأحلام اليقظة ، يتبدل حسب الإيديولوجية الحاكمة . ويكتسي فضاء الرواية أهمية كونها صدرت – كتبت أو نقّحت – بُعيد الثورات التي اصطلح على تسميتها ثورات الربيع العربي، حتى أن إهداءها كان لجهتين آخرهما ثوار فبراير .

وقد خططتْ هذه الورقة على النحو الآتي : عتبة تمهيدية تحدثت فيها عن مفهوم الفضاء الروائي والمنهج المنتخب، ثم كان المطلب الأول : وعنوانه : فضاء القرية في مقابل الفضاء المدني والخارجي ، فالمطلب الثاني : وعنوانه: فضاء الأصالة في مقابل فضاء التغريب ، فالمطلب الثالث : وعنوانه : الفضاء الأليف في مقابل الفضاء غير الأليف ، فالمطلب الرابع وعنوانه : الفضاء الواقعي الآني في مقابل الفضاء الحُلمي والتذكري (المسترجع) ..

عتبة في مفهوم الفضاء الروائي والمنهج

لامشاحة في أن الإنسان يعيش في ظرفين متداخلين هما : ظرف الزمان والمكان، بداخلهما تتمدد تفاصيل حياته بحلوها ومرها، قال تعالى في الأرض : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ([1])

وهذا يدل على أن المكان أسبق في الوجود من البشر ، والبشر يعيدون تشكيل سطحه ، ويتعالقون به سلبًا أو إيجابًا ، ونسبةً .

ولما كانت حركة الإنسان مؤطرة بالمكان ومن ذلك صور التعبير عنه ، كالأجناس الأدبية وأولها الرواية، كان لزامًا على الدارسين أن يهتموا بهذه التيمة، وهذا ماحدث ، وقد نتج عن دراساتهم مجموعة من المصطلحات الخاصة،مثل المكان الروائي،

[1]) القرآن الكريم سورة طه الآية 54 برواية قالون عن نافع .

والفضاء، والفضاء الجغرافي، والفضاء الدلالي، والفضاء النصي، والفضاء بوصفه منظوراً. فالفضاء الجغرافي يتمثل في الحدود المكانية التي تمثل ركح الرواية والإشارات الجغرافية المودعة في النص، والفضاء الدلالي يشير إلى الصـور التي تحْدثها لغة السرد ، وما ينشأ عنها – من بعد – يرتبط بالدلالة المجازيـة، وفضاء النص وهو مصطلح ملتصق بوجهة النظر (التبئير) .([1])

غير أن المصطلحين الأكثر بروزًا على الساحة النقدية هما : المكان الروائي والفضاء الروائي، والمصطلح الأخير هو الأقرب لورقتي، ومما يزيد تشبثي به أنه الأثير عند كبار النقاد العرب الذين احتكّوا بثقافة الغرب واضعي المصطلح ، بامتلاكهم لسانهم؛ وكذلك لأن الفضاء الروائي أشمل من المكان الروائي، فالمكان الروائي، مكان بعينه تجري فيه أحداث الرواية، بينما يشير الفضاء الروائي إلى المسرح الروائي بأكمله، ويكون المكان داخله جزءاً منه ([2]).فالفضاء الروائي لا يرتبط بالزمان والمكان فحسب ، بل يدخل في " علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد، كالشخصيات والأحداث والرؤى السردية" ([3]) لكنْ مما ينبغي التنبيه له أن كثيرًا من كبار النقاد كسعيد يقطين وحسن بحراوي وعبد المالك مرتاض بالرغم من ارتضائهم واعتمادهم الفضاء الروائي وتفريقهن بينه وبين المكان الروائي - فإنهم في كتابتهم - يسوون بينهما .([4])

إن فضاء الرواية (مدار التحليل) تُستجلَى أول ما تستجلى من العنوان ، فعنوان الرواية (القرية التي كانت) يبدي مدى احتفاء المؤلف بالفضاء، لذلك لا عجب أن تكون هذه الرواية رواية فضاء – طبعًا إضافة إلى بقية عناصرها - فالعنوان يؤشر من خلال ثنائية (القرية / التي كانت) إلى قرية متلاشية، ولتلاشيها أصداء. وكأن هذه العتبة تسكب في روعنا مقارنة بين ما كان وبين ما يكون في الفضاء الذي تمددت فيه القرية وتمدد منه وإليه أولاد أولادها

ومن المحفزات بقوة في خوض الدراسة أن الكاتب أحمد نصر واعٍ بأهمية الفضاء الروائي الذي يسميه المكان مقدّرًا جدواه في تأطير الرواية وإضفاء وهج دلالي عليها، فهو يرى أن " المكان هو الركح الذي يحرك عليه أشياءه [الروائي]، وشخوصه ويلاعب به دماه، فهل يستطيع لاعب الشطرنج أن يحرك دمية من مكان إلى مكان بدون لوحة المربعات؟!

إن المكان في فن الرواية الواعية التي نكتب في حدود مدارسها، وتدور في دائرتها لا تعني عندنا مجرد لوحة عليها الحركة، أو ركحا كخشبة المسرح يتحرك عليها الممثلون لا أكثر، وإنما هو داخل ضمن المشهد، ضمن الصورة، وله مشاركة في التأثير على الشخصيات وانفعالاتها، فلو أن الكاتب يرصد خلال سرده شخصية مأزومة بين الجدران تتطلع إلى الفضاء من خلال نافذة ضيقة، فسوف تنعكس هذه الجدران والنوافذ وما وراءها على نفسيته، ويستشعرها من خلال أزمته، وتتلون بلون حالته، وبذلك يصبح المكان جزءا من المشهد المسرود،

أي جزءا من العملية الإبداعية. ([5]) بيد أن عدم اتفاق النقاد على منهجية موحدة تقريبًا لاجتراح الفضاء وتحليله أسوة بالزمان، يرغم الدارس على قراءة مقاربات السابقين ومحاولة إحداث توليفة بينها وبين النص المدروس ، كون الأخير له خصوصيته الناتجة عن اختلاف المكان وعمّاره وتشكيلاته وأزمنته ، مما يستوجب قراءة متن الرواية ثم استقصاء فضاءاتها ما أمكن وتنسيقها في خطاطة تنظم حيثيات الاشتغال.

اتضح من خلال الاستقراء أن محور الرواية هو فضاء القرية، وأن بناءه تم على طريقة المثير والاستجابة والتداعيات من جهة وعلى طريقة الثنائيات الضدّية والمتقابلة من جهة أخرى، فرؤية القرية يستدعي مقابلتها المدينة وقد تتداعى معه فضاءها الماضي بمشتملاته، وإثارة دارة شعيب تستدعي أيام عوز رب بيته، ومشهد القوز المهبور يستدعي حاله التي كان عليه في الماضي وتتداعى بعدها فضاءاته من الذاكرة، وهكذا .

كما أن الفضاءات في الرواية تتصف بحالة التحول، فالقرية متحولة التشكيلات في صورتها وعمّار ومشتملاتها وهذا ما يوحي به عنوان الرواية القرية التي كانت، وفضاء المدينة متحول فهي تتمدد صوب القرية وعمّارها في حال حركة دائمة ويشهد على ذلك الشباب الأربعة الذين سكنوا فضاءها سنين ثم رجعوا إلى قريتهم، لكن ما تلبث بنية الفضاء أن تضبط ذاتيًا لتعود إلى حالة الاستقرار النسبي، فتحول دكان عاشور إلى الإفراغ بعد إيقاف التجارة فكان مصدر ضيق لعاشور تعقبه ضبط ذاتي باستبداله

[1]) ينظر، حميد لحمداني. بنية النص السردي، ط3، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2000م، ص53 ، 64.

[2]) ينظر ،نفسه، ص62.

[3]) حسن بحراوي ،بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ، المركز الثقافي العربـي ، ط١،بيروت، لبنان . الدار البيضاء، المغرب ، 1990م ،ص26

[4]) ينظر ، نصيرة زوزو، إشكالية الفضاء والمكان في الخطاب النقدي العربي المعاصر، مج كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد السادس ، جانفي 2010 ، ص195

[5]) سفيان قصيبات ، لقاء مع الروائي أحمد نصر ، صحيفة الرأي اليوم صحيفة مستقلة إلكترونية ، تاريخ صدورها 2016/2/15

ببيع علف الدواب أحدث استقرارًا في وجدان عاشور وفضائه جميعه وفق بنية علاقات جديدة، ومن خلال هذه العلاقات الدوأمثالها تكون علامات تصدر دلالات وإيحاءات منفتحة أمام القراءة، ولعل هذا ما قصده بيرس بقوله: " العلامة شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر " ([1]) وآمل أن أطبق ذلك عند تتبعي للفضاءات الداخلية المشكلة لفضاء الرواية، فيكون بذلك منهجي في الدراسة وصفي يجنح إلى السيميائية .

الفضاء الروائي في رواية القرية التي كانت :

كما أسلفت أن فضاءات هذه الرواية جاءت على صورة ثنائيات متقابلة ويمكن عرض أهمها فيما يلي :

- فضـــــاء القريـــة ـــــــــــــــ فضاء المدينة/ الخـارج
- فضـــــاء الأصالة ـــــــــــــــ فضـــــــاء التغـريب
- الفضـــــاء الأليـــف ـــــــــــــــ الفضـــاء غير الأليـف
- الفضاء الواقعي الآني ـــــــــــــــ الفضاء الحلمي والتذكري
- **أولاً / فضاء القرية في مقابل الفضاء المدني والخارجي**

يعد هذان الفضاءان هما المهيمنان على الرواية وقد رأينا كيف أن القرية تستحوذ على العنوان، وهذا ما يظهره الدرس، وكيف أن تشكيلاتها ومكوناتها شكّلت مثيرً استجابته قد تكون باستجلاب المقابل : فالقرية كانت محل اعتزاز وانتماء قاطنيها ، وبؤرة جذب لأولادها بالخارج متى أرادوا التوازن النفسي، وقد صرّح

بذلك شريف عمران : " لقد مللت.. إنني أتوق إلى الاستقرار. إلى حياة هادئة حتى ولو عشت في الظل"([2]) وعبد الملك أيضًا يكاد يقول نفس الكلام حين حدث نفسه " جئت القرية من رحلة تعبة؛ لأحط رحلي ، وأراجع حساباتي، وأبدأ من صفحة بيضاء لا لأنبش أياماً انسحبت من تحت قدمي، وطبطبت على ترابها.." ([3]) فالمكونان البشريان عمران وعبد الملك رجعا إلى الرحم إلى الأم بعد أن ضاقت عليهما الدنيا الأول وإن لم يصرح بسبب تعبه إلى أنه صرح بتوقه للاستقرار والهدوء وبين مكمنه بقومه لموئله وهي بالضرورة القرية، وكذلك عبد الملك فالقرية تمثل المكان الذي سيفتح فيه الصفحة البيضاء ! التي ستريحه من التعب، وهو لم يصرّح بمصدر التعب ولكن بالرجوع إلى مهنتيهما يمكن التنبؤ بذلك فشريف - مع دلالة اسمه – يشتغل كاتبًا ويبدو أن كان شهيرًا لامعًا في فضاء العاصمة (المدينة) بنقيض الدلالة التي قد يفقدها " ولو عشت في الظل" ويبدو أن السبب هو مطاردة الأمن له على غرار ما حدث له بعد الرجوع، وعبد المالك يعمل في الإخراج الفني وهو فضاء موبوء وقد مر من خلال بدايات الرواية ما حدث لعشيقته ازدهار فكان الفضاء القروي هو المعالج لوجدانه فترك فضاء المدينة الكبرى القاهرة المصرية ورجع لمسقط رأسه، فالمدينة كانت طاردة وكانت القرية الصدر الأمومي الذي يحتضن الراجع إليها .

وقد صورت الحاجة مسعودة لعبد الملك أفواج الراجعين من مكونات الفضاء المدني إلى فضاء القرية :" شريف عمران عاد لأهله ومعه الطرابلسية الله يخلف عليها مدرسة قد الدنيا، وسليمان موسى عاد بأخواته وامرأة أبيه وتزوج من القرية وعمّروا حوشهم، وصاحبك الآخر شعيب الحمزاوي ، العاطي حي ، شيد حوش من دورين والجنينة يلهد فيها الفرس، وخالتك حليمة كل التعب ولى لها راحة كل المتغريين عادوا مازلت إلا أنت " ([4]) .

في داخل هذا الفضاء شدني مكوّن السِفاح والنكاح، فالقرية لم تزوج فتاة منها إلى الفضاءات الأخرى ، وفي داخل فضائها يوجد الزواج الطبقي ، فيرفض تزويج شاب فقير كشعيب من بنت غني كسلوى ليعود هذا إليها بعد طلاقها فيتزوجها ويوغل في عدم الاكتراث بها، ورفض الفقراء ينطق به قول السنوسي وهو يخاطب سلوى : "أنا أريد أن أقابلها.. لماذا ترفضني؟.. هل أنا أقل منزلة من مكانتها؟ - لا. أبداً.. حاشا لله. -

[1]) أمبرتوإيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – بيروت،ط2 ، 2004، ص120.

[2]) أحمد نصر، القرية التي كانت ،ص28.

[3]) نفسه، ص21.

[4]) أحمد نصر، القرية التي كانت ، ص52.

لا. هذا هو السبب، هي مازالت تعيش بعقلية بنت عضو مجلس النواب،هي تتعالى.. تماماً كما فعلت أنت عندما خطبك شعيب المرة الأولى فرفضته." ([1]).

وبالمقابل ففضاء القرية ينكح مكونه الذكوري من الفضاءات المدنية بالداخل والخارج ، فعبد الملك دخل الفضاء المصري وكافح حتى تزوج من ازدهار، وشريف عمران تزوج من الفضاء المدني الطرابلسي كم رأينا، الحاج موسى تزوج- أيضًا -من طرابلسية ([2])

والغريب أن السِفاح -أيضًا – يمارسه المكون الذكوري للفضاء القروي في الفضاءات الأخرى الخارجية على وجه التحديد ، فقد مارسه بعض شبابها مع المكون الاستعماري من الجالية الإيطالية ومع الفضاء الأوربي ويظهر شعيب هنا كرمز لهذا العمل، وإن تبعه في الشباب عبد الملك، وهنا يعبر الراوي عن السفاح مرة بعقوبتها فيقول " إذن لا بد من تطبيق الحد يا ولد حليمة ، مائة جلدة بسوط من سياط الزيتون" ([3]) فالحد الذي يعاقب فيه العزب بمائة جلدة هو حد الزنا، ومرة يستخدم التكنية عليه بالقول: "صديقنا شعيب الحمزاوي الفارس الذي اقتحم

المجهول وغامر في رحلات ما وراء الحدود فحدثنا السندباد عن مغامرات في ضوء المصابيح الحمراء" ([4]) فالمجهول هنا، ورحلات ما وراء الحدود، مغامرات في ضوء المصابيح الحمراء كلها كنايات تؤشر إلى ممارسة الجنس المحرّم. فهو كثير السفر لفرنسا وقد نقل عالمه إلى مزرعة مسورة حشد فيها نساء من مصر ومن الغرب ويسميهن مضيفات، هذا في شبابه وفي كهولته هاهي سلوى زوجه وقد" تصورته في مزرعة الاستراحة والكأس والسيجارة والنساء والسيشلي ونبوية هانم وأجوائهما السائحة وكاترين التي لا تعرف في أي شركة تعمل ولا أي سر تحمل.. قبل يومين كان في باريس فماذا غير العطور والكأس والنساء؟." ([5])

في هذا الفضاء شكلت الأزواج المدنية الطرابلسية التي تزوجت في فضاء القرية تقاربًا واضحًا يجعلها تتزاور حتى في فترة معياداتهن لأهلن هناك ومنهن من يشدن بأجواء العشق التي انتظمن فيها رفقة رجالات فضاء القرية " ثاني يوم العيد سافرت منى وأمها إلى أخوالها في طرابلس..... وثالث يوم العيد سافرت نجية وولديها إلى طرابلس- أيضاً- صحبة زوجها شريف لزيارة أهلها يتركها شريف لتقضي بضعة أيام عندهم ويعود في نفس اليوم ...."([6]) "منى صحبة أمها .... في طريقهما إلى شارع أبو الخير للالتقاء بنجية عند أهلها هكذا تواعدن قبل سفرهن، منى تعرف الكثير عن قصة الأستاذة نجية مع شريف، وهي شغوفة

بأن تعرف أكثر ويروق لها أن تعرف التفاصيل والخفايا والأسرار لاسيما من صاحبة التجربة نفسها أرتها نجية حجرتها والنافذة التي أطلت منها على الحروف الأولى من أبجدية الحب والشرفة التي استقبل فيها شريف خيط الضياء وبسمة الشروق. حدثتها نجية- وهي تستمري الذكرى- عن التفاصيل من الخفقة الأولى إلى عطش الحرمان إلى لحظة الارتواء . كانت نجية تحكي ومنى منحنية على حافة النافذة في لحظة حلم ترنو إلى الشرفة"([7]) .

- **ثانيًا / فضاء الأصالة في مقابل فضاء التغريب**

ويشكل هذا الفضاء بيت الحاج عاشور والحاج عبد الله أصالة "الحاج عاشور شيء من ثوابت القرية" ([8])كما أفاد عبد الملك ،كان يتوجس خيفة من ضياع فضاء قريته بما استطاع ، فدخل في رفض الفضاء الذي يسعى الحاكم تثبيته ،بدعوة مثقفي القرية المخرج عبد الملك راضي والكاتب شريف عمران في تضمين تشكيلاتها في مسلسل تمثيلي يبقى دليلًا مرجعيًا على أصالتهم وإرثًا يبقونه لخلفهم ، غير أن هذا المشروع ضاع بضياع مخطوط قصته ومطاردة المخرج لازدهاره ([9])، وفيه علامات موحية على بطش الفضاء السياسي والأمني بحرية الثقافة بما يوحي به حرقهم لنسخة المخطوط ، كما يوحي بعدم جدية المخرج ومؤلف القصة أو السيناريو ، لفلتان الأول للخارج ، وتحجج الآخر بفوات العمر " تصور أن يحرقوا جزءاً من عمرك.. تصور.. هل يوجد من يرجع لك لحظة منه؟

[1]) نفسه ، ص223.
[2]) نفسه ، ص11.
[3]) نفسه ، ص29.
[4]) نفسه ، ص30.
[5]) نفسه ، ص21.
[6]) نفسه ، ص 156
[7]) نفسه ، ص 156
[8]) نفسه ، ص10.
[9]) ينظر، نفسه ، ص222

- لا تيأس يا أستاذ.. رينا يعطيك الصحة وطول العمر.. ابدأ من جديد.سكت شريف يفكر في بداية الألف ميل فتراءت له طويلة.. طويلة وشاقة والعمر لحظة فوضع يده على كتف عاشور ثم قال:- رينا يسهل"([1]) .وكأنه استكان نافضًا يديه من آمال البسطاء أصيلي الفضاء كالتاجر عاشور ، الذي أسهم الراوي من خلاله في إضاءة جزءًا من حيثيات القرية ،ومنها الصراع الخفي بين الحاضرة بما تمثله القرية والتبدية في الخطاب القهري الذي يفرضه الحاكم ، فبعد فشل تسويق ثقافة الخيمة بل عدم تمكن الأخيرة من ترسيم نفسها في انعكاس إبداعي فوقي يبرز تواجدها على المستوى التحتي ، قام باستيراد صورة لها من مجتمعات أخرى ، ويظهر الصراع في مناشدة الحاج عاشور للمخرج عبد الملك لإنتاج مسلسل يثبت جدور القرية الحضرية وذلك في :" قول الحاج عاشور وهو يصافح عبد الملك: خذوا بخاطرنا الله يأخذ بخاطركم.. مللنا حكاية الطويسة، والشيخ شعلان، وتسوليف أهل الربع" ([2])فهناك مسكوت عنه يبرزه الحديث عن فضاء غريب اجتلب في فضاء محلي مختلف ، فالطويسة والشيخ شعلان والسوالف والرَبع مفردات تشكل فضاءً غير متآلف مع مفردات القرية الكائنة أو التي ستكون ، وقد أظهر الراوي بيت عاشور وقد عانى الأمرين بفقد ولده في إحدى الحروب ، ومما يوحي بمعاناته الاستفهام التعجبي الإنكاري الخارج من عمق القهر" أين ابني.. هاته وخذني حتى أنا" ([3]) وكذلك فقد وضعه في موقف المناصر لأيديولوجية خطاب الحاكم القائمة على شيوعية الأرض في مقابل معتقداته وأصالته ، فقد خُصصت لأحفاده أبناء الفقيد قطعة من أرض الحبس الذي يخشاه قومه ،وتظهر معاناته التي نعكس رفضًا مطلقًا لتمليك الحبس في قوله بعد أن باع قطعة الأرض الحبسية وأعطى ثمنه للجنة المسجد: "حمل ثقيل وأزحته عن كاهلي.. الحبس وكيله جبريل.. ما ألجأني أن أقابل وجه الله بهذا الوزر؟.. صدقني الآن أشعر بأني خفيف على الأرض" ([4])وقد لاقى هذا الفعل تجاوبًا وجدانيًا تمثل في دعاء "شريف عمران:- بارك الله فيك..وعوضك الله خيراً "([5]) " كان فرج وهو يراقب ما يشاهد تخنقه العبرة.... صمت فرج لحظة يفكر في هذا السمو الروحي.. ثم قال:والله تصدق يا عاشور..ثم هز رأسه وأضاف:-

أتعرف لماذا بكيت أنا؟.. بكيت من فيض الفرحة.. أحسست فى تلك اللحظة أن الله لم يتخل عنا.. وأن قريتنا بخير"([6]) وأغلق دكانه رضوخًا لخطاب الحاكم الأيديولوجي المجرّم للتجارة ، بل تحرك أحد مؤيديه ليتحرش بعاشور وهو فرج الدوح ويخاطبه: "اقفل دكانك يا عاشور فقد انتهى عهد الاستغلال"([7]) وأعقب ذلك " عاشور سحبت رخصته ولا يفتح إلا خفية في المساء ليصرف بقايا " ([8]) لكن تحول فيما بعد لتاجر لعلف الحيوانات ، فبيت الحاج عاشور مرآة عاكسة لفضاء القرية.

وفي هذا الفضاء يظهر بيت أصالة بدلالة التسمية فالوالد مجاهد في فلسطين([9]) ولا يزال محافظًا على السمت القروي ، فهو يرى أن " العمل تربية .... والفراغ يضيع الشباب.. ولا يخفى عليك لقمة الحلال صارت صعبة؛ ومطالب المعيشة زادت " ([10]) وابن هذا البيت اعتقله أمن الحاكم مرتين آخرها مع شريف ، ([11])خديجة أيضًا بنت عبدالله أصالة يسيطر عليها فضاء الأسرة الرافض ،فتقول: " كأن الشهداء في حاجة إلى احتفالاتهم» سبب يتخذونه لابتزاز الدولة وتضييع الوقت وإلهاء الناس.. في كل مكان مناسبة، وفي كل شهر عيد.. احتفالات وخطب وتهريج كرهونا في أعيادنا وإذاعتنا وصحافتنا ،أهلنا الأوائل ما كانوا يحتفلون سوى بعيد الفطر وعيد الأضحى. أما الآن فعدي: عيد الجلاء، عيد العمال، عيد الطلاب!!.والعيد الذهبي، والعيد الفضي، والعيد الخشبي! وعدي.. وعيد الأم، وعيد الطفل.. وعيد المعلم! وعدي.. ودعك من مناسبات المعارك مع الطليان.. لو استمر هذا النزيف البارد ستكون كل أيام السنة أعياداً !!ويومها سيكون يوم العيد هو الذي ليس فيه عيد"([12])

ويمكن إضافة بيت محمود راضي ، الذي زُحف على مصنعه وأغلق دكانه فأصبح الأخير معزلًا له فكان رفضه سلبيًا انسحابيًا " مما جعل منه رجلا منعزلاً من الدكان إلى البيت، ومن البيت إلى الدكان....بعد الزحف على المصنع وقفل التجارة قرر أن يعيش. قال محمود ... كنا نحرص على استثمار كل قرش نوفره؛ توسعنا في تجارة القماش عملنا مصنع بلاط توسعنا في

[1]) نفسه، ص226
[2]) نفسه ، ص15 .
[3]) نفسه ، ص205
[4]) نفسه ، ص205
[5]) نفسه ، ص205
[6]) نفسه ، ص205
[7]) نفسه ، ص13
[8]) نفسه ، ص205
[9]) ينظر، نفسه ، ص56
[10]) نفسه ، ص55
[11]) ينظر، نفسه ، ص168-171
[12]) ينظر ، نفسه ، ص170

المصنع وعندما انتهى كل شيء انتبهنا لأنفسنا قلنا نبني قبر الدنيا ونأخذ نصيبنا مثل الخلق"([1]) واستعارة قبرالدنيا للبيت له دلالة الاستدامة فيه وانتهاء السعي والانفراد والعزلة

نخلص من هذا أن بنية الفضاء في هذه الرواية تخفي فضاءات تضطرم وتتصارع وكل منهما له أنصار ، إحداهما يؤمن بثبات قيم المجتمع والآخر ينزع نحو تفتيت تلكم القيم برفع أفكار تنادي بالزحف على التجار وإغلاق محالهم ولا تعترف بكثير من الأعراف والعقائد التي سكنت لأجيال هذا المكان ، وخطابها التبدي ويدور في فلكه.

- **ثالثًا / الفضاء الأليف غير والأليف**

1)البيت هو الفضاء الأكثر ألفة في القرية ، وحميميته ناتجة من أنه الملجأ والحامي للإنسان ، ولهذا يصوره باشلار بالقوقعة كونها تحفظ ما بتقعيرها([2]) ولكونه أليفًا فهو جذاب فـ" كل مناطق الألفة موسومة بالجاذبية ، وجودها هو الوجود الهنيء" ([3])كما أن الاتجاه الأبوي

بفضاء القرية يجعل الأب أو الأخ الأكبر أو الرجل بعامة هو الحامي لمن فيه وهو المدبر والمؤطر حياتهم، فهاهو أحد أفراد القرية يترحم على راضي لأنه أسس لولديه بيتين بدارة:" رحم الله والدهما فقد أعد لهما بيتين صنوين داخل سور واحد فعمر أخوه بيته

بالمال والذرية، بينما ظل بيته خاوياً إلا من أثاث لا ينفض غباره إلا نادراً قد يعمره بزيارة يوم أو يومين أو أسبوع؛ ثم يغيب عنه سنة أو سنتين أو أكثر هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه يحن إليه هارب إليه.. : من بنغازي من أثينا من قبرص من القاهرة من أصدقائه من عمله من جلده.. وأنه سيقضي عطلته كاملة بين جدرانه " ([4]) هذا الخبر الذي أورده الراوي العليم قد نفذ بالقارئ إلى أغوار البيت بالقرية المقصودة وربه ، كيف كان يفكر لضمان جعل أفضية العالم هامشًا والقرية مركزًا متواشجًا بخفايا الروح ، يرجع له بعد التطواف ويجعل الأخ لصيقًا بأخيه فالبيتان من جهة يمنحان الخصوصية لكل عائلة والسور يظهر اختلافهما عن بقية جيرانهما ، كما أن هذين البيتين صنوان أي متماهيان ، بشكل لا يدع أخًا يحسد أخاه ، ويعكسان بالمقابل تقوى الوالد بامتثاله للعدل بين الأبناء ، إلى جانب يسر حال الوالد ؛ فالفقير لا يقدر على بناء دارة . لم يحتفل الراوي بوصفه ، واكتفى بتتبع حركة أحد مكوناته وهو الشخصية الرئيسية (عبد الملك) الذي تكاد تكون الرواية وصفًا لحركته ، فهو من كان يعرف بالشخصيات إما وصفًا في حواره المستند إلى الحنين مع مكونات القرية الأخرى أو تذكر بمثير ما يحفز حواسه ، وكان البيت عند عبد الملك حميمًا بالمقدار الذي يحتاج إليه، وكان بالنسبة له الرحم والأم اللذين يجد عندهما التوازن النفسي والأمان أنّى انتكس ، وقد باح بسبب عودته إلى القرية : "جئت القرية من رحلة متعبة؛ لأحط رحلي وأراجع حساباتي وأبدأ من صفحة بيضاء لا لأنبش أياماً انسحبت من تحت قدمي وطبطبت على ترابها. "([5]) فعمله المقتضي تجواله ومراجعة حساباته قد أتعبه نفسيًا وجسديًا فكان البيت الأليف هو المقصد، هذه الألفة التي لم يستسغ معها رغبة أخيه في هدم بيته وترقية دارة محله الذي يفهم من حديثه لنفسه : " ماذا ينقص القرية بعد الماء والكهرباء؟ أكان لزاماً أن تكون البيوت شامخة باذخة متعالية زاعقة؟!.. ماذا لو رمم محمود بيته وأصلح من شأنه ولم يحبس نظراته تحت قدميه؟" ([6]) فهذا التعجب الإنكاري يحمل شحنات من الأسى والرفض لمسخ صورة القرية القديمة بشكل عام وبيت أخيه بشكل خاص، وفي التعبير بحبس النظر تحت القدمين أراد –على ما يبدو – شجب فكرة انتقال مفهوم البيت بما

يشتمل عليه فضاؤه من ذكريات وأحاسيس إلى مجرد التفاخر، خاصة بعد سماعه لتحسر أخيه الصائت : " ليتني بنيت دارة مثل الحمزاوي ، أو حتى مثل فرج الدوح؛ لكني كنت قانعاً بهذا المنزل المتواضع حرصاً مني على أن أوظف كل قرش في الاستثمار.. بل حتى أثاث منزلي" .([7])

فالمقتطف يوضح أنه لم يهدم بيته سابقًا لألفته بل لحسابات استثمارية ، كما يشي بأن البيت الراقي يعد مصدر فخر وتكاثر لصاحبه بين الناس ، البيوت لها دلالة طبقية تصنيفية ، فالدارة الحديثة مثلًا تدل على الترف والغنى والتعلق بأذيال الحاكم كما هو الحال عند فرج الدوح فله "بناء أنجز حديثاً ،ينهض من داخل السور تحت غلالة القمر فراح يعيد تصوراته للبيوت الحاطئة التي كانت

[1]) نفسه ، ص32-33
[2]) ينظر، غاستون باشلار، جماليات المكان ، ترجمة غالب هالسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط5، 2000، ص40
[3]) نفسه ، ص42
[4]) أحمد نصر ، القرية التي كانت ، ص16
[5]) نفسه ، ص21
[6]) نفسه ، ص34
[7]) أحمد نصر ، القرية التي كانت ، ص17

مكانه..لمن يكون؟ .. لفرج الدوح؟: هنا كان بيته؛ ويليه على نفس الامتداد خرابة للمرحوم عمه، وتثب إلى خاطره صورة الزعيم"([1])

كما أن الأخ الذكر في بيت النساء أو الأكبر ، وقد تحقق ذلك في سليمان بن موسى - فهو ابن الزوجة الأولى – قد يسيّر البيت ومكوناته في غياب رب البيت ، وهذا ما حصل، فقد رجع بأختيه من أبيه وزوج أبيه " الطرابلسيـــة التي اقترن بها الحاج موسى في آخر العمر بطرابلس أيام العز والبحبحة.... لم يجد أخوهما سليمان بعد وفاة والده والزحف على شركة المقاولات- بداً من أن يعود بهن إلى البيت القديم.. دنيا.. من حي الأندلس إلى قرية ينهض بها الغبار"([2]) هذا البيت الذي كان ربه يشغل منصبًا سياديًا هو العتبة التي فصلت بين القرية الخالصة والقرية المهبورة باستخدامها للجرّاف " يوماً دخل فيه الغول الآلي القرية أول مرة ليقوض بيت الحاج موسى ويكنسه من الوجود في أقل من ساعتين، وكانت الضحية معه يومئذ زيتونة وارفة ونخلتين باسقتين،يومها تحلق رجال القرية وأطفالها حول الآلة المدمرة، تفغر أفواههم الدهشة، بعضهم أخفى وجهه وبعضهم حوقل وعض شفته السفلى وهو يشاهد ثلاثة آلهة يعدمون في لحظة واحدة، زيتونة ونخلتين، ومع ذلك فقد التمس البعض للحاج موسى عذراًء فقد كان الرجل يستعد ليدخل معمعة الانتخابات، ولا يليق بنائب يمثل المنطقة وبيته من حجارة وطين وليس به (مربوعة) تسع ثلاثين ضيفاً في وقت واحد فكان لزاماً أن يهد الحاج موسى البيت القروي، ويكتسح جزءاً من الأشجار حوله لينهض أول بيت شامخ من الإسمنت المسلح في القرية ، قبل أن تفوح رائحة النفط في صحراء ليبيا ببضع سنوات.([3]) ولعلنا هنا نلاحظ العلامات الكلامية غير الكلامية الشعبية التي استخدمها الراوي في وصف الصدمة والترويع التي لحقت ببسطاء القرية عند رؤيتهم للسرعة المدويّة لسقوط البيت ومسح الأشجار، وهي : تحلق رجال ...، تفغر أفواههم .... بعضهم أخفى وجهه وبعضهم حوقل وعض شفته السفلى، واستعارة لفظ الآلهة للأشجار؛ لأن النخل والزيتون من قوت أهل القرية وأحيانًا الوحيد لهذا فهما مكرمان ، وهنا البيت لم يشفع له أنه قد أظلهم يومًا فالنظرة برجماتية بامتياز، فالانتخابات تحتاج مربوعة متسعة ودارة مشيدة ، فليس العداء للفضاء البيتي هو السبب بل فقه المآل .

ومن البيوتات المشكلة لفضاء القرية بيت أصالة ، وقد وصفه الراوي بما يؤكد أصالته " منزل عائلة أصالة ،ما زالت به أشياء من معالم القرية، المدخل المقوس والباب الأخضر المفتوح طول النهار"([4]) هذا البيت مسير رب البيت ، وبث الراوي في هذا المكون رموزًا هي في الأصل مبثوثة في القرية القديمة فالبيت المقوس يرمز لدورة الحياة: الخلق من طين فالحياة ثم الطين ، والباب الأخضر رمز للرفاه والخيرات والفتح طول النهار فيه معنى الكرم وكثرة النشاطات، وهذا الفضاء مثالًا للمجاهدة والعصامية .

ومن البيوت أيضًا بيت شعيب ، وهو مثال الفضاء المهلهل في الرواية، شعيب هذا لديه زوجين ، آخرهما بنت موسى التي لا تشعر في بيتها بالحميمية لعدم مبالاة شعيب بها ، أو لعدم قداسة البيت عنده ، استراحة شعيب الحمزاوي تدل على صعود المفاجئ للبرجوازية الصغيرة وهي فضاء أليف له وإن كانت غير ذلك بالنسبة لأزواجه خاصة سلوى ([5]) تراها بؤرة موبوءة عمادها" الكأس والسيجارة والنساء والسيشلي ونبوية هانم وأجوائهما السائحة وكاترين التي لا تعرف في أي شركة تعمل ولا أي سر تحمل.. قبل يومين كان في باريس فماذا غير العطور والكأس والنساء؟." ([6]) ومن ثم فهي تقاسمها زوجها رفقة ضرتها. وهناك بيت عمران أبي شريف، الذي يمثل التوافق المدني القروي ، فزوجته نجية طرابلسية واندمجت في الفضاء القروي وكان عتبتها لذلك هو حبها لشريف ([7]) ، ويبدو أن فضاء هذا البيت مرض للراوي فمالكه عمران وفي دلالة اسمها ما فيها من التفاؤل وفي اسم شريف ابنه ما أكدته الأيام فهو صاحب المكتبة وقد سجن سياسيًا بسبب رغبته في الاصلاح، وعلاقة هذا البيت بالفضاء القروي هي علاقة ألفة وانتماء.([8]) ومن خلال اجتماع البيوت تتحقق الجيرة وروابطها، وقد أسهم تعدد بيوتات القرية في تعدد الأحداث وفتح القرية من الداخل لتتراءى ظلال الشخصيات في الأماكن، كما أن مكونات هذه البيوت هو من يفتتحون الفضاءات الخارجة عن القرية المشكلة للرواية، والمعدة للفضاءات الأليفة وغير الأليفة والمعادية أحيانًا، التي سأحاول لملمتها هنا.

2/ ومن الفضاءات الأليفة المكون الديني :

[1]) نفسه ، ص12
[2]) نفسه ، ص11
[3]) نفسه ، ص5-6
[4]) نفسه ، ص53
[5]) ينظر، أحمد نصر ، القرية التي كانت ، ص48 :50
[6]) نفسه ، ص21
[7]) ينظر، نفسه (في قصة حبهما) ص159-160
[8]) ينظر ، نفسه ، ص167

أ/ المسجد العتيق وأوقافه وصفه الراوي على لسان عبد الملك بقوله: " من الخارج بناء أثري قادم من أصول القرية الأولى، جدران عريضة مبنية من الحجارة والجير ونوافذ ضيقة مشبكة بالحديد المزخرف، يقولون إن عمره ثلاثمائة سنة، ربما أكثر، وربما أقل، لكنه على كل حال هو الأقدم في موروثات القرية بعد رحيل القوز والمنخفض. أقواس كالأهلة المقلوبة تحملها أعمدة

اسطوانية منحوتة من الحجر تحمل قباباً بيضوية....البئر ما زالت الكرية بأعلاه رغم وجود الأنابيب حوله، وهذه الميضأة لم يطرأ عليها جديد سوى صنابير تنتظم فوقها.. لا شيء تغيّر، رطوبة الجدران، رائحة المكان طلاء الأبواب الأخضر.."([1]) وقد حَوصل الراوي بعيني عبد الملك ولسانه ألفته المكان واهتمامه به؛ فهو يعرف تاريخ إنشائه أو يقاربه ويعرف رائحته التي تنقله لعفرتة الطفولة والحنين لها، ويقول في ذلك: " هو كما هو منذ أن كنا صبية نتبرد بمائه وقت حرارة الصيف ونصلي في الصف الخلفي ونتعفرت بساحته." ([2]) ورغم ألفة وحميمية المسجد باعتباره بيت الله فإن أهل القرية منهم رقيقي الدين الذين لا يصلون إلا مسايرة لمن يحترمونه ويخشون عدم رضاه "(الله أكبر) جاءت من وراء ظهره [عبد الملك] صيحة بلا تنغيم، إعلاما بميقات صلاة الظهر، هاهم بعض الناس قادمون استجابة للنداء. نهض واقفاً وفكر أن يطأطئ رأسه وينسحب. لكنه رأى الحاج عبد الله أصالة وأبناؤه قادمون، فخف يسبقهم إلى الميضأة." ([3]) ويكشف رجوع عبد الملك مضطرًا للمسجد مدى احترامه لأصالة ، ومقياس التفاضل القروي القائم على معطيات الديانة الإسلامية ، كما يبين مدى سيطرة المكون الديني على عموم شخوص الفضاء القروي ،وشاهد ذلك أنه لم يفكر في الخروج رافعًا رأسه بل مطأطئًا له، ولا يطأطئ رأسه إلا المخطئ خطأ جسيما . وقد حاول القرويون بناء مسجدًا جديدًا لكنهم وقفوا عند عتبة التمويل بعد أن نفدت نقودهم على السقف و" السقف يحتاج إلى ثلاثين ألف دينار.. على الأقل." ([4])الغريب هنا أن المجتمعين كانوا ينظرون للمسألة نظرة اجتماعية ، ومصداق ذلك خوفهم من العار الذي سيتحقق لو لم يكتمل المسجد قبل الفيلات المجاورة له ولم يقولوا: حرام مثلًا – وشاهد ذلك قول عبد الله:" كل الفيلات في غوط الحبس تجاوزت الدور الأول؛ إلا مشروع الله ظل حاطئاً.. والله لعار علينا. أمّن عاشور على كلام عبد الله قائلاً: والله لعار. ويا خوفي لينهي الحنشاوي بيته قبل أن نسقف بيت الله."([5]) ويشي هذا المقتطف – أيضًا- بثنائيتين أريد لهما أن يكونان ضدين، يتقابل فيهما مشروع الله مع مشروع الوافدين، وهنا إيماء إلى فساد الوافدين لأنهم من جهة ارتضوا سكنى فضاء محرم " لم يجرؤ أحد من أهل القرية على المساس به؛ لأنه من أوقاف الجامع؛ والناس في القرى يقولون: إذا مررت بأرض وقف فانفض قدميك من التراب قبل أن تغادرها " ([6])ولذلك كان الحنشاوي منبوذًا ومحل سخرية، فكأن السخرية هي الوجه الآخر للعداء، الراوي اختار له اسم منسوب للحنش الذي من سماته الغدر والعض كما أنه لا يحفر ولا يبات برا، لا يشتغل فيحوّش ما يشتري به بيت ولا يبقى بدون سكن حتى لو ازدرد أهل السكن، وهذا ما أيده قول عبدالملك، فهو " لا يعرف أصحابها [الفلل] إلا بالسماع ربما لشهرة بعضهم في مواقع حساسة، أوأماكن قيادية، أو لتداول أسمائهم بالسخط على ألسنة المغاليب" ([7]) وكل هؤلاء محل شبهة .

ب / ومما يُضمّ إلى الفضاء الديني الطوائفُ الصوفية التي يبرز أبو عجيلة درويشًا من دراويشها ، وأبوعجيلة اسم مجتلب من أهل طريقة ما بغرب ليبيا ، ومن خلاله حاول الراوي أن يفتح هذا الفضاء ليرينا نظرة الفضاء القروي لهذا المكون ، التي اختلفت بين التكريم والكراهية والسخرية ، فحتى داخل البيت الواحد لمست اختلافًا في تقديره ، فحين ضرب شعيب أبا عجيلة " كانت أم شعيب قد همت عن كرسيها تصيح من ورائه:حرام عليك يا ولدي.. اتق الله.. أبوعجيلة وليّ..

-هذا شيطان.. كلب" ([8])

وشتان ما بين ولي الله وبين عدو الله والكلب في الثقافة القروية ، فالأول محل للتكريم والثاني موطن للكره ، والثالث هدف للاشمئزاز والاستخفاف . توحي العبارة بإيمان العجوز بالولاية الدراويش الصوفية ، ففضاء الصوفية لديها أليف ومحبته تساوي التقوى ، في حين أن ولدها شخص نفعي برجماتي يفعل ما يوصله للذة الآنية ولا يعبأ بالمآلات . والوافدون الجدد كان منهم من

يعير ويوبخ الدرويش ففي يوم العيد حين " كان يهف بجلبابه الجديد في اتجاه الجامع العتيق ولحق به- مصادفة- الحنشاوي في سيارته .... وخاطبه:

---

[1]) نفسه ، ص58-59
[2]) نفسه ، ص59
[3]) نفسه ، ص59
[4]) نفسه ، ص179
[5]) نفسه ، ض180
[6]) أحمد نصر ، القرية التي كانت ، ص6-7
[7]) نفسه ، ص203
[8]) نفسه ، ص207

- إلى أين ياهْفُك؟! رائحة الشواء في فضاء القوز وليست في الجامع."([1]) والازدراء واضح في الخطاب ربما باعثه الإيديولوجية التي يسير عليها الحنشاوي أو لأن اللدغ من سماته التي أراد الراوي الإيحاء بها باختيار اسمه .

وكان الدرويش يتصرف بغرائبية - مثلًا – بعد إهانة الحنشاوي له "لم يلتفت إليه، وإنما تابع خطوه السريع حتى دخل الجامع ، لا يدري لم جاء، ولا يدري كيف وجد قدميه تعتلي درجات الأذان، وتعبر به إلى السطح؛ فتح عينيه في الشمس المنحدرة نحو الغروب، ثم أسند ظهره إلى القبة، وظل ينصت إلى همهمات المساء انفتحت في صدره آفاق عريضة؛ فاستجاب لهمس جواني، خطا خطوتين على السطح وبدت له غيطان المنخفض تنو بنتوءات البناء، وسيارات الشركة؛ فتخيل العمارات تتطاول على القرية بطوابقها وتعلو بالمنخفض فرفع كفه في الفضاء كمن يود إيقافها ومد يده الأخرى في محاذاة كتفه جهة فضاء القوز وصاح:(ارتفع المنخفض وانخفض المرتفع) حرك يديه الممدودتين في توازن بحركة خفيفة فصار صليباً حياً معلقاً بلوحة الغروب"([2]) و من خلال التعابير المبثوثة في المقتطف تتبادر أسئلة كالإجابات : فأي شمس تلك ؟ أهي شمس التوازن الكوني بين الروح والمادة ؟ أم شمس الروحانيين ؟

وفي هذا المقتطف يظهر بجلاء عدم ألفة الفضاء له .الصوفيين ومغيب زمانهم ؟ أم شمس القرية المتماسكة ؟ ثم استناده إلى القبة لتحمي ظهره وتدعمه ممن ؟ من مسبب كل تلك أشياء أم مجرد طقس عابر للمعاني ؟ وهل هناك تماه في تفكير الدرويش بين قبه الولي وقبة المسجد ؟ وصياحه : (ارتفع المنخفض وانخفض المرتفع) هل هو على سبيل الحقيقة وما يحدث في فضاء القرية أم أراد به بشر لم يسمهم ومنهم الحنشاوي وكان ذلك بمثابة التعريض به وتذكيره بأنه واطٍ ، جاهل، لاغ، ولم يرد إلا لأنه عالي الهمة، وطريقته تمنعه من ذلك؟ ربما . لكن الأكيد أن للصوفية معجمهم الخاص المختلف في دلالات كثير منه على لغة الجموع . ويحاول الراوي تقريبنا من أسلوب الدرويش، الذي يميل إلى التكرار كم في صياحه السابق، وصياحه الآخر "عندما فرغ مسح فمه بكمه وظل مكانه واقفاً لحظة ثم صاح:

- متسلسلة، متسلسلة.. من أبو عجيلة إلى قرن الثور."([3]) فالدرويش هنا لا يبالي بأتيكيت الفضاء فهو يمسح فمه بكمه ، كما أنه يربط نفسه بنفس السلسلة التي تربط الثور الذي يضع الأرض على قرنه حسب معتقده، ويبدو أن تواضع الصوفي هو الذي جعله يبدأ التسلسل ويجعل الخلق بينه وبين قرن الثور، وهذه الجملة قالها سابقًا عندما طلب من عاشور: " كلّم فرج يكلم أخاه مفتاح يشغلني خفير في السوق.ضحك عاشور وقال:

- ولماذا لا تكلمه بنفسك أو تكلم سليمان بن موسى مدير السوق.- لا يا صاحبي، السلسلة حلقات والدنيا متسلسلة من أبو عجيلة إلى قرن الثور" ([4])، وكانت الفرق الصوفية يستعان بها عند الاحتفالات ومنها ذكرى المعارك "كأن الشهداء في حاجة إلى احتفالاتهم، سبب يتخذونه لابتزاز الدولة وتضييع الوقت وإلهاء الناس"([5]) المسكوت عنه هنا قد تكون الحكومة ، جاء هذا التعليق من منى بن موسى حين رأت" ساحة القوز تنتظم - في فوضى - الطوائف أمام الخيام، وتطق الدفوف، وتبلبل المقرونة ويرتفع اللغط والهتاف وصهيل الخيل ورائحة الطعام؛ فتتجاوب رياح الخريف للصدى، تزعتر في أرجاء الفضاء؛ فتخفق أعلام الطوائف وترتجف الخيام والجلابيب؛ ونواصي الدراويش، وذيول الخيل الطويلة، تحية لذكرى شهداء قوز التيك"([6])وهذا الفضاء يعجب أهل الطرب والصوفية ويكرهه -أيضًا – فئام من مكون الفضاء نحو: منى – كما أسلفت - والراوي الذي يمكننا استيحاء موقفه من تعابيره : فوضى الطوائف، ونواصي الدراويش، وذيول الخيل الطويلة، تحية لذكرى شهداء قوز التيك، فالتعبير بالفوضى لا يصدر إلا من شخص مستهجن لخرق النظام بالقرية الوادعة، والجمع بين نواصي الدراويش وذيول الخيول للتحية يوحي بالسخرية وتعظم هذه السخرية إذا كان جمعهم لتحية الشهداء !

ج/ويضاف إلى هذا الفضاء الشهداء و الموتى فالأفكار المتعلقة بالتعامل معهم أو بالواجب تجاههم كلها أفكار إسلامية أو يظن أنها إسلامية، وهؤلاء لهم إكبار وتوقير بقلوب أهل القرية، ففضاؤهم لا يُمسُ إلا لضرورة قصوى ويظل الخلاف على مسه قائمًا أبدًا بين مكونات الفضاء بمرجعياتهم الدينية والثقافية والعرفية، ولذلك فحين حاول البعض مسح المقبرة لتوسعة الجامع " مجاهد قال إن الناس منقسمون حول إزالة المقابر، يبدو أنها المشكلة التي يعالجونها " ([7]) وهي قديمة وقليلة القبور كما يفهم من

[1]) نفسه ، ص157
[2])نفسه ، ص157
[3]) نفسه ، ص161
[4]) نفسه ، ص161
[5]) نفسه ، ص170
[6]) نفسه ، ص162
[7]) نفسه ، ص116

السؤال التقريري الذي ساقته منى : "- كم قبراً هي؟!.. وهي قديمة مسواة بالأرض." ([1]) وبالرغم من أن " الأستاذ شريف ممن يرى إزالتها وقد استصدر بشأنها فتوى من علماء الدين ، لكن بعض الناس لم يقتنعوا "([2]) وبالإضافة ما سبق فإن المقبرة تعد مكونًا أليفًا عند الكثيرين ممن أقبرت جثامين والديهم فيها ، فهم يزورونهم ويعيشون معهم رغم اختلاف الدار ، لكن الغرباء الوافدين وممن استحلوا الحبس فهؤلاء لا يهتمون بالمقابر .

ولقداسة معنى الشهادة ، لم يسمح حتى أطفال الفضاء بإضافة من ليس منهم إليهم ونحل المعاني السامية لغير أهلها ، فقد أحرقوا قبر والد شعيب الذي رخمه وادعى أنه شهيد ، " وأبو عجيلة بينهم، انبثق من الجامع العتيق، غنى معهم، وجذب ثم سلك إلى مقابر الشهداء ليوقد شمعة على قبر عبد الله الحمزاوي الرخامي ثم تمتم بأدعيته، وغاب في لون المساء. أقبل صبي نزق ليوقد من شمعة القبر شعلة من سعف النخيل التهب السعف اليابس فوق

القبر، ولحق شقي آخر وألقى كومة من السعف وثالث دحرج إطار سيارة، استعرت النار فوق القبر وتصعد الدخان، وتصايح الصبية والأطفال:

- نار جهنم يا حمزاوي.. نار جهنم يا حمزاوي.."([3])

في تعابير التي ساقها الراوي ما يدل على أن أبا عجيلة كان متآمرًا ولم يكن بريئًا من العملية ، فكلمة انبثق تدل على خروجه المفاجئ ، وقصده وضع الشمعة فوق القبر مشبوه ، فحركة أبي عجيلة تجاه هذا القبر توحي بعدم قداسة ولا تكريم هذا القبر وهو القبوري الذي يؤمن بقدرات الموتى ، فقبل هذا كان يجلس على هذا القبر كأنه كنبة لا أحد فيه "أبوعجيلة الدرويش لم يبرح مكانه يقتعد القبر الرخامي، ويده على الشاهد وعيناه ترنوان إلى مشروع الجامع الجديد" ([4]) كما أنه لم يخبر عن من أحرقه وقال لا أعلم ؛ لربما لهذا السبب شعيب " جذبه إليه ودفعه بكل قوة صائحاً: أنت كاذب.ارتمى الدرويش إرضاًء فلحقه بركلة من قدمه، صرخ المسكين وفر مرعوباً ....هذا شيطان.. كلب " ([5]) كما أن شعيب أن الحرق مع سبق الإصرار؛ ولذلك خصص سؤاله : " هل كان معهم محمد أصالة؟.. أو أي أحد من أفرخ الجهة البحرية؟ " ([6]) فهؤلاء يبدو أن ذويهم يعلمون حقيقة مقتل والده ، ويؤكد هذا هتاف الصبية والأطفال بعد إحراق القبر المذكور أعلاه . فمن يتعاون مع المحتل جزاؤه نار جهنم ، ويبدو أن الحكم صادر سلفًا والتنفيذ كان في يوم يحتفل به القرويون بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويمكن فهم موقف الحمزاوي أنه أراد أن يدعم نفسه بتاريخ جهادي من أجل الانتفاع .

د/ ويضاف ـ أيضًا ـ لهذا الفضاء مكون الاحتفالات الدينية :

ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الذكرى يحتفل بها صوفية الفضاء وصبيانه وأطفاله أو هكذا على الأقل ما صوره الراوي ،وتبدأ الاحتفالات ليلة المولد بإشعال النيران والأهازيج"وقتها كان المساء الرمادي يستقبل القرية بالشموع والقناديل، يطوفون بها الأطفال ويرددون أغاني الميلاد، والصبية يلهون ويعبثون ويوقدون المشاعل من جريد النخل وإطارات السيارات المستهلكة، وأبوعجيلة بينهم، انبثق من الجامع العتيق، غنى معهم،وجذب، ثم سلك إلى مقابر الشهداء ليوقد شمعة .... ثم تمتم بأدعيته، وغاب في لون المساء. " ([7]) هذا الفضاء أليف يشي بحب الرسول صلى الله عليه وسلم ويبدو أنه فضاء لتصفية الحسابات لمن خالفه .

العيد – أيضًا- مكون أليف محبب في الفضاء القروي و" أهلنا الأوائل ما كانوا يحتفلون سوى بعيد الفطر وعيد الأضحى." ([8]) والراوي وإن لم يطلعنا على عيد الفطر فقد نقل إلينا أجواء فضاء يوم عيد الأضحى ، لكنه سكت عن اليوم الأول وتحدث عن" ثاني يوم العيد [فقد] سافرت منى وأمها إلى أخوالها في طرابلس، واصطحب شعيب الحمزاوي زوجه سلوى إلى المزرعة الاستراحة.... وثالث يوم العيد سافرت نجية وولديها إلى طرابلس- أيضاً- صحبة زوجها شريف لزيارة أهلها يتركها شريف لتقضي بضعة أيام عندهم ويعود في نفس اليوم، وعلى مساحة القوز الراحل يعج المساء بالأطفال والصبية؛ وقد أنشأوا ملعباً لكرة القدم ....تتصعد مع

[1]) نفسه ، ص116
[2]) نفسه ، ص116
[3]) نفسه ، ص189
[4]) نفسه ، ص168
[5]) نفسه ، ص206-207
[6]) نفسه ، ص206
[7]) نفسه ، ص189
[8]) نفسه ، ص170

المساء رائحة الشواء والشاي الأحمر ونكات الرجال وضحكاتهم المجلجلة، حتى الحاج عاشور أعادت إليه أيام العيد المبارك كثيراً من طبيعته؛فدوت ضحكته المعهودة التي تنتهي عادة بالسعال.... فصافح الجميع بمباركة العيد"([1]) فالعيد بكل مقاييس الفضاء فسحة ولعب وتواصل وازدراد ومباركات ، والقوز كان فضاءً ضامًا لكثير من هذه النشاطات .

3/ فضاء بقيّة القوز

مكون أليف آخر من مكونات فضاء القرية الأكبر، رأينا فاعليته في العيد وكيف أنه يحتضن كبار القرية بأريحية ، والحقيقة أن هذا المكون عوّض افتقار القرية للمقاهي، فهو مكان للاجتماع خاصة في أماسي وليلي الصيف ، وهو فضاء ذكوري بامتياز ، هذا المكون الترفيهي لا يحتاج - وهو المريح للجسد - أثاثًا بل هو الوسادة والفراش والتكييف والموقد، وهذه لقطة متحركة من أجوائه : "عند منحدر تل الرمل عدل عاشور الضامر(براد) الشاي على الموقد وصف الأكواب الصغيرة على السفرة، ثم اتكأ إلى الوراء غارزاً مرفقيه في ليونة الرمل أما فرج الدوح فقد كان ماداً رجليه؛ ومنهمكاً بمطرقة صغيرة يكسر اللوز عالم القوز وعبد الله أصالة متكئ جنبه يستشعر راحة جسده على الرمال الناعمة، وعلى يمين عاشور كان شريف عمران وقوراً في جلسته" فالشاي واللوز والقعدة غير المقيدة عدا جلسة شريف ولعل مرجع ذلك لصغر سنه مقارنة بالآخرين فلفضاء القرية أدبياته وقواعده التي لا تفتح جميع الآفاق في التعامل بين الأعمار ، وبين الوالد والولد وهذا يفسر سبب بقاء مجاهد في " قمة تلة القوز المترهلة ....يحزم ساقيه بذراعيه ودخان الفحم ورائحة الشواء ومزاح الجماعة تختلط عند المنحدر ربما لأن والده مع الجماعة"([2]) خشية أن ينزلق الوالد بكلمة المزاح تهز شخصيته في عين ولده ، بـ"تجاور الجميع في أمسية حميمية مرحة ، يتناوشون بالنكات والمزاح، وتسفر وجوههم تحت ضوء (الكلوب)عن الانبساط والرضوان والليل الساكن يحتضن القوز "([3]) وفي مثل هذه الأريحية لا تؤمن التعابير.

ومن مصادر ألفة القوز أنه" يسد عن القرية رياح البحري الهوجاء " ([4]) فيحفظ صحتهم، لكن هذه الألفة غير مطلقة فأهل الفضاء يتوجسون خشية من انسيابه على الأرض الزراعية فمع استمرار الريح وضربها للقوز " لايلبث أن ينحني تحت سياطها الموجعة فينهال ويهدد الحقول بالغزو البطيء.." ([5]) . القوز إذن كان مكانًا للاستجمام والراحة والتواصل لمن أعمالهم داخل فضاء القرية أو كعاشور صاحب الدكان، وعبد الله أصالة صاحب البلوكيرة، وكثير من هؤلاء استمرأوا جو القوز وأنساهم أوعوضهم على كثيرمن سبل الترفيه الأخرى لكن بعض الشباب كانوا يسترقون الخطو إلى فضاءات أوسع فمنهم من سافر أو سكن خارج القرية ، ومنهم من كان يخرج خارج مضارب الديار ليتناوش المصابيح الحمراء ، أو دار عرض للسينما ، أو استراحة تتلائم وتضاريسه النفسية ([6]) والبعض قد يكفيه دكان عاشور ليقتل الوقت .

4/ دكان القرية :

هو دكان للحاج عاشور، دكان على الطراز القروي القديم عماده :"أرفف خشبية مرصوصة علباً ، شكائر تكشف عن محتوياتها ،الميزان ذو الكفتين يحتل جانباً من (البنك) العريض الذي يقسم الحانوت قسمين، جواني ويراني، وهريرة أزعجها دخول الرجل فنهضت من مرقدها تمطط جسدها هنا قاع القرية بمكوناتها بمخزونها بروائحها بمائها الراكد" ([7]) فحركة الناس الدائبة جعلت أسرار الفضاء ترسو فيه ، ومن العادة أن يكون النصف البراني من الدكان مخصص لمن جاءوا كي يضيعوا الوقت أو يزوروا عاشور، وللإعلام عن دوام عاشور " دكان الحاج عاشور يتوج واجهته بمصباح كهربائي ناعس يجتذب الفراش والزبائن وأسرار القرية"([8]) أو كما عبر فرج الدوح ممازحًا عاشور : " وتذكّر وقت أن كنت ناصب مندافك في هذه القرية؟ أيامهـــا كنت مثل الديك تنهـــض مع الخامســة، وتجري للفرن كالملهوف" ([9]) هذا الأسلوب الفكه مثلما يرسم صورة واضحة عن علاقة القرية بمكون الدكان وصاحبه ، فهو يبين أهمية الدكان للقرية ، ويعكس من جهة أخرى سعة بال عاشور التي من أهم متطلبات التاجر فليست البضاعة كل شيء في التجارة – وإن كانت سببًا لوجودها– بل الأساس هو حسن التواصل والتعالق بين أهالي الفضاء القروي ، لكن الأيديولوجيات تغير أمزجة معتنقيها ، وتقودهم إلى فضاءاتها ، فإذا بشخص كفرج الدوح وقد وقف" أمام الدكان هنا وضع

[1]) نفسه ، ص156-157
[2]) نفسه ، ، ص50
[3]) نفسه ، ص55
[4]) نفسه ، ص55
[5]) نفسه ، ص55
[6]) ينظر، نفسه ، ص 22 ، 29،30 ، 48
[7]) نفسه ، ص10
[8]) نفسه ، ص10
[9]) نفسه ، ص83

يديه في وسطه ودفع طاقيته على جبهته كالعادة وقال: (اقفل دكانك يا عاشور فقد انتهى عهد الاستغلال " ([1]) هذه الفكرة وما قبلها أظهر عاشور زيفها وعدم واقعيتها، وقال متشفيًا في فرج " أما الآن- يا مكرم- فأنت الذي ينهض مع الديك، ويضرب ثلاثة كيلو مترات إلى الفرن، ويقف في الصف نصف ساعة ليعود بأربعة أرغفة للحوش وقتها يكون الأطفال قد غادروا إلى مدارسهم جياعاً. قال فرج ليهون من شأن كلام عاشور: كل تلميذ يأخذ في جيبه ربع دينار ويشتري (نصيف) في مدرسته. -لا.. الحال باهي من عنده ستة أطفال يدفع دينارًا ونصفاً يوميًا 45 ديناراً في الشهر ثلث الدخل..يا فرحتنا"([2]) هذا الحوار مثلما يؤكد تصارع إيديولوجيتين ، يوحي بالحالة الاقتصادية التي تعيشها مكونات الفضاء ،فالفقر بادٍ من ضعف معاشات بسطائه ، كما يبرز انعدام المؤسسات الضرورية كالمخبز .

تمظهرت سيطرة الإيديولوجية الشيوعية المليّبة في أن " - عاشور سحبت رخصته ولا يفتح إلا خفية في المساء ليصرف بقايا بضاعته "([3]) لتبقى حسرات أهل الفضاء من فوات خدمات الدكان ، التي يحتاجونها ، ويظهر ذلك في قول محمود راضي :" - ما عرفنا قيمة دكان القرية إلا الآن."([4]) كما تظهر حسرة وامتعاض عاشور بدلالة قول الراوي واصفًا: " خرج فبصق مرارة ريقه

في الشارع، وجلس على كومة الرمل أمام دكانه الذي كان ،دكانه المغلق دائماً على أرفف الخشب، والصناديق الفارغة، والثلاجة العاطلة، ومصيدة الفئران، اتكأ على مرفقه يريح جسده، وانطوى على همه. "([5])غير أن عاشور ما لبث إلا وتحول بنشاطه " وضحك عاشور كعادته وهو يعلق : وهأنذا كما كنت أبيع المواد الغذائية للبشر صرت أبيعها للحيوان."([6]) الضحكة – في تقديري – من شر البلية ، وهي تدل على عدم ألفته النشاط الجديد إلا لضرورة الحاجة المالية ، وهذا ما يؤكده المقتطف الآتي ، فبعد قدوم شريف " دلف معه إلى داخل الدكان ،لاحظ شكائر الشعير المتراصة داخله فقال: ماذا عملت؟!. حولت الدكان إلى مخزن أعلاف؟!هز عاشور رأسه: كيف ما يأتيك الزمان تعال له.. ثم أنشأ يحكي الفكرة طرأت بعد أن اشتريت بذور الشعير لموسم الحرث لأشترك معكما أنت ومجاهد كما تعلم ، وشاء الله أن يكون ما كان، ويقيت بعدكما أتحسر أنا والشعير خزنته في الدكان فترة ، وجاء من اشترى مني بعضه ، ثم اقترح علي بعض الناس أن أفتح الدكان لبيع الأعلاف.". ويمثل –على ما يبدو –المثل خطة دائمة للتعامل مع المتغيرات الجبرية ، فهو من جانب يمثل قمع الخضوع والاستسلام ومن جان يمثل طريقًا دلولًا لتوخي الحذر مع الكسب ، فبنية فضاء التجارة في الفضاء الأكبر (القرية) تحولت لتبقى .

• رابعًا / الفضاء الواقعي الآني في مقابل الفضاء الحلمي والتذكري (المسترجع)

الفضاء يظهر في هذه الرواية على ثلاث هيئات :

أولهما :نمط واقعي معيش له آلفوه وأحبابه لكن منهم من يعيش حال توجس وحيرة من تآكل مواطن الألفة، فهذا أحدهم بحسرة يتساءل :"ماذا بقى من القرية؟ الجامع العتيق؟ غوط الحبس؟ السانية الأم بجناح واقف وآخر منهار؟ أم دكان عمك عاشور؟ أم حدبة من بقـــايا القوز؟ أيام وستمحى كل هذه البقايا وستغيب كل هذه المعالم وتزفت الشوارع، وترتفع درجة الحرارة بين الناس" ([7]) إذن فما بقي من فضاء القرية القديمة غير هذه المكونات أما بقيتها فقد اندثرت أو تحولت إلى بدائل تؤثث الفضاء من جديد فـ"ـالقوز ينهض والمنخفض نزعت ملكيته واحتله المشروع والشوارع تمهد للقطران وغوط الجامع فراغ وحطام ولعله على طاولة المهندسين؛ هذا الرحيل كان في يوم ما حلماً مستحيلاً..ماذا جرى؟! تحقق المستحيل؛ فهبطوا مع أحلامهم ليلوحوا بمنادي لهم لموكب الرحيل؟!.. أم إنها الحركة والسكون.. الثابت والمتغيـــر" ([8]) فالتحول مشهود أما المحرك له فمسكوت عنه ، فالقوز ينهض ، نُزِعت ، تُمهد ، فالفاعل الحقيـــقي غير مذكور قد يكون للخوف منـــه أو لعدم تعلق غرض بذكره ، فالغرض هو رحيل القرية ولا يهم من أحدثه ، الحلم هنا كان مستحيـــلًا لا لأنهم يرجونه ويشعرون بامتناعه ، بل كان تعبيرًا عن فداحـــة ما وقع ويوحي به الاستفهـــام التعجبي الإنكاري "ماذا جرى".

ومنهم من سريع التأقلم مع المتغيرات يعيش حاضره كما كان . وتظهر ألفة فضاء القرية في حديث شريف عمران أحد شخوص القرية الذين قرروا الرجوع لها واتخادها مستقرًا له فيقول " لقد مللت.. إنني أتوق إلى الاستقرار. إلى حياة هادئة حتى ولو عشت

[1]) نفسه ، ، ص13
[2]) نفسه ، ص84
[3]) نفسه ، ص51
[4]) نفسه ، ص51
[5]) نفسه ، ص152
[6]) نفسه ، ص192
[7]) نفسه ، ص9
[8]) نفسه ، ص15

فالظل"([1]) فهذا الفضاء يمثل في تقديره سفينة النجاة من الإكراهات التي يعيشها ، لكن ونحن في حديثنا عن النمط الواقعي علينا ألا ننسى أن هذه الواقعية مخاتلة كون عناصرها عند التشكيل الروائي مرت على مخيلة أحمد نصر فأضافت إليهـــا وحذفت منها ،لانتشـال الرواية من الواقعية المباشـرة مما يجعل القارئ لا يكاد يميز فيها بين ما هو تصـوير للواقع بمـــرآة مستوية وبين سواها من المرايا ، بل بين ما هو واقعي وما هو متخيل.

وحين نتحدث عن الفضاء الواقعي فنحن لا نقصد به فضاء القرية فحسب فهناك فضاءات أخرى واقعية ولكن النفس قد تسقط إحساساتها على الواقع فيتغير في عين صاحبها لا في حقيقة الشيء ، كما حدث في فضاء المعهد الذي كان يرتاده رفقة عشيقته ازدهار ، فقد كان الفضاء ربيعًا عند تواجد ازدهار فيه ، " تدلف ازدهار إلى مقصف المعهد في صباح يوم مشرق كإشراقة وجهها" ([2]) والفضاء نفسه داهمه الصيف وريح الخماسين فـ" يوم أن كان بعض من طلبة المعهد يعتورون مجلة (الكواكب)وهم على كراسي المقصف يطلعون إلى الأذرع والسيقان وكل المؤهلات التي رشحت زميلتهم إلى دور البطولة لشريط يخرجه مخرج مشهور انفصل عن زوجته رقم ثلاثة منذ شهر.. يومها كان آخر الربيع قد تنفس في شوارع القاهرة برياح الخماسين" ([3]) فهنا الفضاء تغير طقسه بتغير إحساسات الناظر العاشق فالربيع رهن بوجود المرغوب فيه ، والصيف رهن بوجود ما ينغص النفس، فالصيف هنا معادل موضوعي للصيف ، كما أن الربيع معادل موضوعي للربيع ، فالفضاء عنا ترسمه النفس ولا تتملاه العين ، والواقعية هنا بالنظر إلى صدق تعبير النفس لا على صورة الفضاء التي يتساوى في رؤيتها الجميع.

ثانيها : نمط متخيل ارتدادي (مسترجع)

عند حديثي في عتبة البداية عن الرواية قلت: إن منها من بُني على أساس المثير والاستجابة ([4]) والاستجابة قد تكون في صورة تدفق لفضاءات كانت حبيسة الذاكرة، بمجرد تدفقها يتوقف السرد الذي يلاحق الفضاء الآني، ويسمى هذا الارتداد بـ(الاسترجاع)،

وقد يكون الارتداد (الاسترجاع) لارتباط شيئين في فضاء زماني مكاني ، فالمكتبة جمع اشتاتها من بنغازي والقاهرة فحين عـــاد بعد فترة "إليها يستكشفها من جديد يتأمل عناوين ويتذكر مضامين تنقله إلى أجواء الدراسة ....وقبل أن يرفع يده بالكتيب ارتسمت في خاطره صورة (ازدهار) صورة مبهرة تملا مخيلته بعطر الليالي المضيئة، تتألق نجمة، وتهبط نجمة، تضيء دنيا..لكنها تنطفئ في دنياه"([5]) فازدهار ارتبطت بالدراسة والقاهرة ولذلك فأي شيء مصدره الدراسة بالقاهرة يذكر عبد الملك بها.

وقد يكون تأمل مكان ما تربط الإنسان به علاقة حلولية موئلًا للذكرى ، فإذا توقف الإنسان هنيهة كما حدث مع عبد الملك حين أخذ " يتأمل المكان الذي كان؛ فتذكر عشرات الجوابي الخرسانية المترعة بماء الفوار محاطة بغيطان القصب وأشجار الزيتون والنخيـــل تجاوب الماضي بمسمعيه خوارٌ ثور، ونهيق حمار، وصيحة فلاح؛ فغاب مع الذكرى، خلع ثيابه وقفز في ماء الفوار الدافئ يسبح ويخوض، ويغطس ويطفو ويعابث رفقة الصبا.. تلك أيام.. انسحبت ولكنها من الذاكرة لا تمحى " ([6]) فبتأمل عبد المـلك للمكان تذكر الجوابي ، وبتذكرها تداعت الصور المتناغمـة معها في الفضـــاء القروي الريفي المخزون ، وكل مكونات الفضـــاء المخزون محببة تتساوى فيه نهقة الحمـــار مع صيحة الفلاح ، فالحنين يتكفل بذلك ، والصورة المسترجعة من الماضي يظهر فيها اختلافًا عما هو موجود في الفضاء الآني ، فما ذكره عبد المالك هنا لم يشر الراوي إلى وجوده قبيل الذكرى .

لقاء رفاق الماضي خاصة الطفولة بعد انقطاع يشكل برزخًا آخر للذكرى ، وما أن ينفتح الباب حتى تتداعى المواقف ، وتتشكل الفضاءات بقلم ومقص الذاكرة ، فعند تلاقي شريف عمران بعبد الملك راضي وسلامهما الحار وعناقهما اللذين يدلان عن طولة فترة فراقهما يبدأ الرجلان في استيراد فضاءات الذكرى ، فتصبح في تداع متسلســل القصة تستدعي أختها وهكذا .." أتذكر يوم أن غرق شعيب الحمزاوي في إحدى الجوابي وهب لنجدته سليمان موسى فكادا أن يغرقا معاً..ولولا عاشور الضامر وفرج الدوح لهلكا معاً.كانت أيام حلوة بحلوها ومرها.. من قال إن الدنيا تنقلب بهذه السرعة؟.. كان الربيع يكسـو المنخفض ويبدل إهابه من أخضر إلى مزركش إلى سنـابل قمح وشعير تتسفى تحت لمسات النسيم. فيجتذب الطيور المهاجـرة ترفرف بألوانـها المختلفـة ليكتمل عرس الطبيعة بالألوان والوشوشات.

[1]) نفسه ، ص28
[2]) نفسه ، ص14
[3]) نفسه ، ص21
[4]) ينظر، هذا البحث ص2
[5]) نفسه ، ص18
[6]) نفسه ، ص25

وكنا نغتدي يوم الجمعة- حيث لا كتاب ولا مدرسـة- إلى منحدر القوز نقلب الرمال بأكفنا النحيلة، فإذا ما عثر أحدنا على دودة رملية هزته الفرحة وأسرع إلى هنا لينتزع سعفة من أول فسيلة تقابله ويمزق منها شريطاً رقيقاً ليربط به الدودة من وسطها ويشدها إلى الفخ بعناية صيادة الطيور ..ثم يحدد مرتكزات الطيور ؛ ليدفن الفخ قبالتها ويترك الدودة تتلوى وتشكع تحت حرارة الشمس. ونظل نراود الطيور المسكينة من بعد نزجرها حيناً ونصفر لها حيناً حتى نسوقها إلى حتفها وتقع في المصيدة.وعندما نصطـاد مجموعة نربطها بشرائط من السعف، ونوكل أمرها إلى شعيب حليمة ليبيعها لأولاد الطليان.. ويبيعها الواحد بخمسة قروش ويقسم ألف يمين ما باع إلا بقرشي . أتذكر يوم أن كنا نخرج من المدرسة الثانوية لنمر بمكتبة الشعب ؟ الكواكب لتشاهد صورة فاتن حمامة وماجدة وسامية جمال وتتابع أخبار الفن وتحلم بأن تكون شكري سرحان . أتذكر ليلة الاكتشاف..... يوم أن خرجنا من عرض شريط مأساوي ولعله(ليلى العامرية)؛ وكانت أحداث الشريط تعتمل في نفوسنا فكنا مكتئبين وقابلنا شعيب الحمزاوي في طريق العودة منبسطا مسروراً؛ فأدركنا أن وراءه سر لَّه ،ما الذي جعله كذلك؟ وأين كان؟ مسكته أنا من يد وأنت من الأخرى وظللنا نركله بأقدامنا ليخبرنا أين كان وظل هو يتأوه ويضحك .... وعاد جمعنا إلى الأنس في ظل القمـر فحدثنا السندباد عن مغامـرات في ضـوء المصابيح الحمراء " ([1]) نلاحظ أن هذه الاسترجاعات قد أفادت الفضـاء بذكر تحولاته ومـا يستتبعها من جوانب نفسية جعلت الراوي في حالة خوف من ضياعها إذا لم تقييـد ، كما أن الاسترجاع بين مدى حنين وتعلق وألفة أهل القرية بفضائهم ، كما قربت القارئ من جوانب مؤسسة لشخصيات المكونات البشرية المؤثثة لفضاء القرية ، فرأينا كيف كان الإحساس الأخوي بين شباب الفضاء سببًا في نجاة من غرق ، وعرفنا أمزجة التعامل بين الناس ، فشعيب مثلًا – تارة ينسب إلى أبيه فيقال الحمزاوي حين يكون مرض عنه ، وتارة يكون ابن حليمة إذا سلك طريقًا غير مرضي عنه كما عرفنا أللعاب الأطفال وما توحي به من رق الحال ، وآمالهم التي تبرزها مقتنياتهم المكتبية وعرفنا العنصر الدخيل التواجد عن بعد بمؤسساته ، كما أطلع القارئ على بعض الفضاءات التي لم يتوقف عندها ؛ كونها في هامش الفضاء ولم تكن مسرحًا احتضن أحداثًا أساسية بالرواية ، فالمكتبة والمدرسة الثانوية –مثلًا – عرفنا بوجودهما – وإن كانتا خارج القرية –من خلال أحد الاسترجاعات التي استعنت بها ، ولم يتوقف الراوي عندهما لا وصفًا ولا تسريدًا ينم على مكوناتها ، لكونهما من الفضاءات الهامشية بالرواية.

ثالثها : نمط متخلل أحلام اليقظة

هذا النمط ناتج عن تصادم الرغبة بالواقع ، يتجلى في هذه الرواية في منى بتحليقها الرومانسي وأبو عجيلة الدرويش بثوب الصوفية ، والفضاء الحلم هنا يتشكل في فضاء القرية ولكن ليس دائما يكون صورة له ، بل قد تنقل الحالم إلى أجواء قديمة تجد فيها الهروب من الواقع ، فبعد اعتقال مجاهد ، منى " " ظلت مراهقة تتأرجح بين الصحو والحلم، وتتعامل في عالمها الخاص مع باسم الذي رحل وغاب في غيمة بيضاء وتتواءم مع المتغيرات والدنيا والطارئات حتى العودة إلى القربة.. إلى البيت العتيق" ([2]) فباسم ابن الدبلوماسي السوري بعد رجوعه إلى بلاده كانت تتخيله وقد رحل وغاب في غيمة بيضاء ، وهي تعيش وتتعامل معه وفق هذا الحال ربما بالحوار مع السحب البيضاء أو بركوب سحابات مشابهة علها تراه في الحلم إن عزّ في الواقع "كانت- فيما قبل- تفعل ذلك، ترتمي على ظهرها فوق السرير فترحل بها هالة من الألق السماوي، وتظل تحلم، تنسج من المستحيل واقعاً تطرز ستائر الحرير بأوراق الورد وتشتل الأزهار بحواف الشرفات، وتلتقي بباسم في كل الأوقات..باسم ينبثق من داخل الحلم، يهدهد الأماني في العمق.. ويطفو على الواقع وجيب قلب. " ([3])"أنست أجواء الطيران والتحليق فعادت إلى قراءاتها وجدت حضورها في كتبها باتت تسهر في وادي القرى تعايش بني عذرة تحاور ليلى وتحنو على قيس.. رقت عواطفها وتشريت روحها مثاليات الهوى. والصبر على معاناة الجوى" ([4])"فالفضاء الذي يشكله الحلم ينسج من عناصر مستحيلة الانسجام بمنظور أهل الفضاء الواقعي ، فهو قمين بأن يجلب الماضيين القريب والبعيد فباسم يمثل أمامها في أي وقت تشعر بحاجتها له فيه ، وقد يسهم الحلم في تحليقها وطيرانها لفضاء الحب المثالي العذري حيث يمكّنها من محاورة ليلى والمشاركة الوجدانية لقيس، بل وإحضار الحبيب المسجون بلحظات الأريحية ليشارك مع الحالمة منى، ففي مرة جلست على الكرسي كان يقابلها الكرسي الشاغر لم تسافر بعيداً؛ فقد هبط الحلم يحتل الكرسي الشاغر أمامها وعلى الطاولة الصغيرة بينهما كوبان من عصير الفواكه.. تبادلا النخب..تناجيا.. تحدثا عن غد قادم، الشرفة بهما أرجوحة، وفي باطنهما تشرق بهجة اللقاء "([5]). والملاحظ هنا أن منى شكلت رمزًا لمكون العاشقين الحالمين الرومانسيين بفضاء القرية .

[1]) أحمد نصر ، القرية التي كانت ، ص25-31
[2]) نفسه ، ص122
[3]) نفسه ، ص21
[4]) نفسه ، ص173
[5]) نفسه ، ص177-178

ومن أحلام اليقظة ما يعيشه المجذوب من الدراويش في لحظات التجلي والحضور الروحي ، فشطحات الدرويش أبي عجيلة توحي بوجوده بعالم موازٍ لعالم البشر العاديين ، بل بانفتاح عالمي المنام واليقظة على بعضهما "أجاب أبو عجيلة بإصرار: نعم رأيته.. البارحة كنت أنا وإياه.

- رأيته في المنام؟.. لوح الدرويش بيده: ما الفرق بين المنام واليقظة؟.."([1])

ومن ذلك أنه سخر منه أحدهم فـ" لم يلتفت إليه وإنما تابع خطوه السريع حتى دخل الجامع لا يدري لم جاء ، ولا يدري كيف وجد قدميه تعتلي درجات الأذان وتعبر به إلى السطح؛ فتح عينيه في الشمس المنحدرة نحو الغروب ثم أسند ظهره إلى القبة وظل ينصت إلى همهمات المساء انفتحت في صدره آفاق عريضة؛ فاستجاب لهمس جواني خطا خطوتين على السطح وبدت له غيطان المنخفض تنوء بنتوءات البناء وسيارات الشركة؛ فتخيل العمارات تتطاول على القرية بطوابقها وتعلو بالمنخفض فرفع كفه في الفضاء كمن يود إيقافها ومد يده الأخرى في محاذاة كتفه جهة فضـــــاء القوز وصاح: (ارتفع المنخفض وانخفض المرتفع) حرك يديه الممدودتين في توازن بحركة خفيفة ، فصار صليباً حياً معلقاً بلوحة الغروب " ([2]) فهذه الشطحة تدور بفضاء بين اليقظة والحلم ، وتفتح آفاقًا للتأويل لكن القبض على دلالتها الحقيقية فهو أمر مستحيل المنال ، كون فضاء الحلم الصوفي بعيد عن الفضاء الواقعي .

نتائج الورقة البحثية

حاولت هذه الورقة مقاربة عنصر الفضاء في رواية تتفصد بفضائيتها ابتداءً من عنوانها، بذلك الدمج الذي أحدثه الكاتب بين ما هو زماني وما هو مكاني ليشكّل ضفيرة الفضاء الروائي، وقد وصلتْ إلى نتاج، أهمها:

- إن مصطلح الفضاء الروائي هو المصطلح الأمكن من بين المصطلحات الرديفة التي استخدمت في نطاقه ، فهو يحتوي المكان بتأثيثاته وما يتحرك فيه من شخصيات وأحداث وعلاقات بل يشمل الجو العام الذي تخلقه اللغة السردية في تفاعلها مع ذهن المتلقي وبما فيه من ثقافة وأوهام كهف.

- بني فضاء القرية في هذه الرواية على طريقة المثير والاستجابة والتداعيات من جهة وعلى طريقة الثنائيات الضدّية والمتقابلة من جهة أخرى، فرؤية القرية يستدعي مقابلتها المدينة وقد تتداعى معه فضاءها الماضي بمشتملاته.

- ألقت مؤثرات عديدة بظلالها على الفضاء الروائي، منها ما هو اجتماعي ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو نفسي.

- كان مفهوم الفضاء الروائي واضح عند الروائي وآليات توظيفه محكمة، وكان لهذا وذاك أثرهما الواضح في تماسك النص وتواشج عناصره فكان من أسباب إمتاعه وإقناعه وغناه الدلالي.

- حاول الروائي من خلال فضاء هذه الرواية أن يعيد بحروفه تشكيل قرية تلاشت، مما يجعل النص حقلًا واعدًا لدراسات لاحقة تتجه إلى النص بمناهج أخرى .

[1]) نفسه ، ص14

[2]) نفسه ، 157

قائمة المراجع

أولا: المراجع العربية:

- القرآن الكريم سورة طه الآية 54 برواية قالون عن نافع.

- بحراوي ، حسن . (1990) بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربـي، ط١، بيروت، لبنان. الدار البيضاء، المغرب.

- زوزو ، نصيرة .(2010) إشكالية الفضاء والمكان في الخطاب النقدي العربي المعاصر، مج كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد السادس، جانفي .

- قصيبات ، سفيان . (2016) لقاء مع الروائي أحمد نصر، صحيفة الرأي اليوم صحيفة مستقلة إلكترونية، تاريخ صدورها 2016/2/15

- لحمداني ، حميد .(2000) بنية النص السردي، ط3، بيروت، المركز الثقافي العربي.

- نصر ، أحمد .(2011) رواية القرية التي كانت ، دار المنار للطباعة والنشر ، ط1 ، مصراتة

ثانيا: المراجع الإفرنجية المترجمة :

- إيكو أمبرتو ، (2004) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/بيروت،ط2

- باشلار غاستون ، (2000) جماليات المكان، ترجمة غالب هالسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط5.